SIBAWAYH Journal of Arabic Language and Education Vol.1 No.1 2020
eISSN 2716-5515 (93-117)

أهمية البلاغة العربية في تفسير القرآن

The importance of Arabic rhetoric in the interpretation of the Qur'an

Ahmed Shatibi
Faculty of Arts and Humanities, Sharif Hidayaullah Islamic State University, Jakarta
ahmad.syatibi55@uinjkt.ac.id

Published: 20 June 2020

ملخص البحث

القرآن المنزل باللغة العربية إنما أنزل لغرضين أساسيين: هداية الناس والشهادة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. معنى ذلك أن الآيات القرآنية من بداية سورها الى نهايتها إنما هي الهداية كما أنها هي المعجزة. فلا توجد آ

ية من آيات القرآن الا وهي هداية ومعجزة في آن واحد. لأن مثل الهداية والمعجزة في القرآن كمثل عملة واحدة ذات وجهين ولا يمكن الفصل بينهما. فالقيام بالفصل بينهما يستوي في ذلك بإماتة روح القرآن عينها. بل كأن هداية القرآن تتوارى خلف إعجازيته بينما الإعجازية التي لا يختلف فيها العلماء بلاغته. أما الهداية فهي الإرشادات التي ترشد الناس وتدفعهم إلى التصرف فعلا أو تركا، فلا بد من ذلك أن تطبق في واقع الحياة اليومية على شكل التصرفات اثباتا لهداية القرآن. فكيف تكون الهداية محققة و مطبقة تطبيقا ملموسا بدون فهم البلاغة حيث إنها وليدة القرآن. من ذلك ليس بمنكر إن للبلاغة أهمية عظمى في كشف أعمق معاني القرآن حيث فيها هدايته. ولن يصل هذا الكشف المنشود الا عن طريق التفسير الجاعل البلاغة وسيلة أساسية له.

Abstarct

The Qur'an, which is in Arabic, was revealed for two main purposes: the guidance of the people and the testimony to the sincerity of the prophecy of Muhammad (peace be upon him). This means that the Qur'anic verses from the beginning of their wall to the end are guidance and miracle. There's no One of the verses of the Qur'an is both a guidance and a miracle. Because such guidance and miracle in the Qur'an are like one coin with two faces and cannot be separated. To separate them is equal to the death of the same spirit of the Qur'an. It is as if the guidance of the Qur'an is hidden behind its miracle, while miracles in which scholars do not differ in its eloquence. Guidance is the guidance that guides people to act or leave them, and this must be applied in the real world in everyday life in the form of actions to prove the guidance of the Qur'an. How can guidance be achieved and applied concretely without understanding the rhetoric, since it is the product of the Qur'an? It is therefore not a denier that eloquence is important in revealing the deepest meanings of the Qur'an, where it is guided. This desired disclosure will only be reached through an in-kind interpretation as a basic means.

Keyword: *Arabic rhetoric; Miracles; Meanings of the Quran; Meanings of the Quran; Fatwas and rulings*

مقدمة.

خلفية فكرية.

ليس منا من ينكر في كون القرآن منزلا باللغة العربية. وإن عربية القرآن أخبرها الله بوحده في محكم تنزيله متفرقة في ستة آيات[1]. وبالإضافة إلى ذلك ليس من الغلو اذا قيل إن عربية القرآن تقتضي أن يكون الإيمان به في حاجة إلى فهم اللغة العربية بكل ما فيها من ألفاظ ومعان، أصولا ومبادئ تركيبا وأسلوبا. سواء في ذلك العرب وغير العرب. وفهم اللغة العربية المنشود هو الفهم الهادف إلى معرفة ما فيه من أحكام وشرائع بل ووجوه إعجازه. واذا قيل إن فهم القرآن في أمس الحاجة إلى التفسير وفهم التفسير لن يتحقق إلا بفهم كل ما يتصل به من العلوم القرآنية والقواعد الأصولية فإن هولاء المذكورة لن تتم الا بإستيعاب كامل على جميع ما في اللغة العربية من أصول وفروع. أولاها البلاغة.

لعلنا لا نرتكب الشطط اذا قلنا إنه ليس منا من يشك في أن حسن الإيمان بالله يتوقف تماما على حسن الفهم لهذا الكلام الإلهي. فالإيمان السليم بالله اذاً منوط بفهم كلامه و بمعرفة وجوه إعجازه. وفهم كلامه ومعرفة وجوه إعجاز القرآن منوطة بمعرفة بلاغته ودقة أساليبه. فمعرفة اللغة العربية – أولاها البلاغة – من ضروريات يتطلبها دين الإسلام.على سبيل المثال تأمل ما قاله أبو الهلال العسكري[2]: إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها — بعد معرفة الله جل ثناؤه — علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ... وقد علمنا أن الإنسان اذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع عليه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه من الإيجاز البديع.[3]

---

[1] يوسف: 2، طه:113، الزمر: 27 – 28، فصلت: 1 – 3، الشورى: 7، الزخرف: 1 –3،

[2] هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد العسكري المتوفى سنة 395 هـ أحد أعلام النقد والأدب في القرن الرابع الهجري صاحب كتاب الصناعتين الكتابة والشعر.

[3] . الدكتور عبد الفتاح لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ، دار المع.ارف، ط 2.، 1978. ص 14.

[3] الشورى : 11

أضف إلى ذلك ما قد أحسه الزمخشري[4] إحساسا قويا بضرورة الإلمام –قبل كل شيئ –إلى علمي المعاني والبيان لمن يريد تفسير كتاب الله فقال في مقدمته في الكشاف كما يلي:

... ثم إن أملأ العلوم بما أغمر القرائح وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سبكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم .فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيئ من تلك الحقائق الا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان.[5]

الحديث عن القرآن – من حيث كونه لغة– لا يعدو أن يكون من ناحيتين: ناحية اللفظ وناحية المعنى.اللفظ والمعنى هما اللذان تقوم عليهما اللغة.وكلما أطلقت كلمة " اللغة " فلا يرادبها إلا اللفظ والمعنى وهتان الناحيتان جعلتا القرآن كتاب إعجاز. أو بعبارة أخرى إن مدار إعجاز القرآن هو اللفظ والمعنى. فنقول إن القرآن معجزةٌ من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى. وهذه هي المعجزة التي لا يختلف فيها العلماء حيث سموه بالإعجاز البلاغي[6]. والجدير بنا أن نثبته في ذهننا مرة ثانية أن القرآن ليس فقط كتاب إعجاز وإنما في نفس الوقت كتاب هداية. فمثل القرآن اذا كمثل عملة واحدة ذات وجهين يكمل بعضه بعضا ويستحيل التفريق بينهما. فعمل التفريق بين ناحيتي إعجاز وهداية في القرآن يستوي في ذلك بإماتة القرآن عينه باعتباره روح الحياة الإسلامية.

---

[4] هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ولد سنة467 هـ – 538 هـ.

[5] الكشاف، ج 1 ص. 12 – 15 في التفسير والمفسرون، ج 1، ص. 407.

[6] أظر الإنعجاز القرآني لسعيد بركة ص. 36.

ككتاب إعجاز فالقرآن يؤدي بدوره إلى الإيمان الصادق بأنه كلام الله أتى من عنده بدون أي شك، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وجدير بالذكر إن إعجاز القرآن الغير مختلف فيه لفظه ومعناه. ومعرفة الإعجاز القرآني لفظا ومعنا لن تتحقق الا بمعرفة البلاغة والبلاغة عينها من العلوم العربية.

ككتاب هداية فالقرآن يتطلب بدوره إلى عمل ما فيه من التعاليم لسعادة البشر كله في الدنيا والآخرة. بينما العمل بما فيه من التعاليم لن يتحقق الا بعد فهم ما فيه من الأحكام والشرائع التي تضمنتها ألفاظه ومعانيه. وفهم ما في القرآن من التعاليم فهما صحيحا يوافق مراد الله يحتاج ماسة إلى التفسير. فالتفسير الأصح اذاً أن لا ينظر إلى القرآن نظرة محدودة محصورة في أنه كتاب هداية يحتوي على الشرائع والأحكام وما إلى ذلك من المعلومات فحسب وإنما في نفس الوقت أن ينظر إليه في أنه كتاب إعجاز. وما ذلك الا ليتخلصَ التفسير من الزيغ المائل إلى مجرد اتباع الشهوات ولكي يكون واعيا على أن في القرآن من الآيات التي لا يعلم مرادها الا الله. ولعله صدق في ذلك ما قاله ابن عباس إن التفسير على أربعة أقسام:(1)تفسير الحلال والحرام لا يعذر أحد بجهالته (2) تفسير تفسره العرب بألسنتهم. (3) تفسير تفسره العلماء .(4) تفسير لا يعلمه الا الله[7].ففي هذه المقالة البسيطة يتمنى الكاتب تجلية وإطهار ما بين تفسير القرآن وبين اللغة العربية من ارتباط وثيق وعلاقة غير منكرة وبصفة خاصة علم البلاغة. فاخترت الموضوع تحت عنوان :

أهمية البلاغة العربية في تفسير القرآن

وسوف يتناول هذا البحث إن شاء الله العناصر التالية:

1. البلاغة ومكانتها إزاء القرآن ككتاب إعجاز.
2. التفسير ومكانته إزاء القرآن ككتاب هداية.
3. أهمية البلاغة العربية في تفسير القرآن.
4. خلاصة البحث.

[7]محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الإحياء الكتب العربية، ج 1. ص. 478.

بحث.

أ. البلاغة ومكانتها إزاء القرآن ككتاب إعجاز.

لقد اقتضت سنة الله أن خلق الإنسان مفضلا بالعقل على سائر مخلوقاته الأخر. فبه كلف بمعرفة الله وبعبادته. والعبادة هي الطريق الوحيد للوصول إليه، ولابد أن تكون العبادة المأمورة بها[8] التي تمثل العلاقة بينه وبين خالقه متلائمة وإرادته ومشيئته. من ذلك فالإنسان يحتاج إلى رسول مبعوث من بينهم ومن جنسهم يبشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى توثيق وتوطيد هذه العلاقة. أما ثبوت الحاجة إلى رسول فهو أن الإنسان مخلوق لله وهو خالقه. فبين المخلوق والخالق بون شاسع لأنه لا يدركه العقل لا حقيقته ولا إرادته ولا طريقة العبادة الصحيحة التي أرادها الله الخالق على الرغم من أن التدين فطري في نفس الإنسان و غريزة من غرائزه.

إن الإنسان بفطرته يقدس خالقه. وهذا التقديس – في الحقيقة – هو العبادة. والعبادة هي التي تمثل العلاقة بين الإنسان وخالقه. وهذه العلاقة إن تركت دون نظام يؤدي تركه إلى اضطرابها وإلى عبادة غير الخالق. فلا بد من تنظيم هذه العلاقة بنظام صحيح. وهذا النظام لا يأتي من الإنسان لأنه لا يتأتى إدراك حقيقة الخالق حتى يضع نظاما بينه وبينه. فلا بد من أن يكون هذا النظام يأتي من الخالق. وبما أن الله لا بد أن يبلغ هذا النظام للإنسان وليس في مقدور عقولهم أن يتلقوا التعاليم مباشرة من تلقاء الله فلا بد من إرسال الرسل من بينهم ومن جنسهم. فمن المفروض عقليا أن هؤلاء الرسل المبعوثين يؤيدهم الله بما يخارق العادة المسمى فيما بعد بالمعجزة. ولأن ادعاء النبوة والرسالة يقتضي أن يكون له دليل حاسم وبرهان قاطع لتقبله عقول الزمان والمكان فجرت سنته تعالى أن

---

8. (الذاريات: 56)

يظهر على يدي كل نبي مرسل أمرا معجزا يكون دليلا على صدق دعواه حتى يتبين الحق من الباطل وتنقطع حجة المعارضين.

لفظ المعجزة يأتي من " أعجز \ يعجز \ إعجاز ". واذا قلت مثلا: " أعجز الشيئُ فلانا " معناه: " جعل الشيئ فلانا عاجزا " أي غير قادر. فالعجز اذاً ضد القدرة. واذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز. والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق نبي من الأنبياء في دعواهم النبوة والرسالة.

أما المعجزة على معناها الإصطلاحي فهي أمر خارق للعادة مقرونة بالتحدي سالم عن المعارضة.[9]

ولعل من الجدير في هذه القضية أن ننظر بإمعان إلى ما قاله الأستاذ الدكتور قريش شهاب عن مفهوم المعجزة[10] فقال:إن الأمر لا ينبغي ان يسمي بمعجزة الا اذا توفّرت لديه أربعة عناصر:

1. أن يكون الأمر خارقا للعادة. أما بالنسبة إلى الحوادث الطبيعية وإن كانت تثير شدة الإعجاب فلا ينبغي أن يقال له إنه معجزة لأنها تجري على العادة وليست بخارقة العادة.
2. أن يكون الأمر يأتي ممن يدعى أنه نبي. أما وإن أتى من غير من يدعى أنه نبي يرسل فإنه ليس بمعجزة. مهما يكن الأمر خارقا للعادة. وذلك إما أن يكون ارهاصا وإما أن يكون كرامة وإما أن يكون إهانة أو استدراجا.
3. أن يكون الأمر متحديا على من لا يصدقه يوم يدعي أنه نبي. لا قبله ولا بعده. ولا بد أن يكون الأمر المتحدي به –حين يحدث — يصدقه الناس جمعاء ولا يكذبه أحد.

[9]. مناع قطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة تامعارف بالرياض، ط 8. س. 1408 هـ \ 1988 م ص 258.

[10]. انظر قريص صهاب، معجزة القرآن على منظور الناحية اللغوية والإشارة العلمية وأخبار الغيب، ص 26.

4. أن يكون الأمر المتحدى به يؤدي إلى فشل المتحدى عليه. أما وإن كان غير ذلك فلا يعتبر معجزة.

ولكي تكون المعجزة قاطعة لكل حجة، مرتفعة فوق كل مكابرة كانت دائما من جنس ما يحسنه قوم النبي وينبغون فيه. إذ أن خرقها للعادات الجارية يكون أوضح وأقوى دلالة على صدق النبي في دعواه. فمعجزة موسى عليه السلام كانت مناسبة لأهل مصر لأن السحر والكهانة كانا فيهم وكان للسحرة عندهم منزلة ومكانة. وإبراهيم عليه السلام أرسله الله إلى قوم كانوا على مقربة من عبدة النار فكان إطفاء الله النار لإبراهيم من غير سبب ظاهر إشارة إلى عجز النار التي تعبد. كما كانت معجزة عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لشهرتهم في الطب والعلاج. وعلى هذه القاعدة جاءت معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معجزة لغوية قرآنا عربيا يتلى لأن البيان كان مناط فخر العرب.[11]

اذا كانت معجزات الأنبياء السالفة الذكر ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم المادية المحسوسة كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه قد مضت وذهبت وانتهت بانتهاء أزمنتهم، فإن القرآن لمعجزة باقية خالدة بقاء الدهر وخلود الزمن وهو لم يزل يعجز الإنسان إلى يوم القيامة.

وليس الأمر جديدا عند الناس أجمعين أن العرب أمة مشهورة بالفصاحة والبلاغة واللسن والبيان حيث كانت هذه الفنون أعظم علومهم ومفاخرهم حتى أن لهم أسواقا طارح فيها الشعر بعضهم بعضا وكانوا أكثر الأمم شاعرا وأديبا فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحداهم غير مرة ولكنهم مهما علت فصاحتهم البلاغية ومهارتهم الكلامية وعظمت طاقتهم اللغوية لمعارضة القرآن وركّزت فكرتهم أفرادا وجماعات لما سمعنا حتى الآن قرآنا أو سورة غير هذا القرآن وغير هذه السورة. مع ذلك أن القرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم ألفاظا وحروفا تركيبا وأسلوبا ولكنه في اتساق حروفه

[11]. انظر عبد الغني محمد سعيد بركة، الإعجاز القرآني، مكتبة وهبة، ص. 6.

وطلاوة عبارته وحلاوة أسلوبه وجرس آياته ومراعات مقتضيات الحال في ألوان البيان بلغ الذروة التي تعجز عن المعارضة أمامها القدرة اللغوية لدي البشر.

ذلك هو القرآن كلام الله المعجز الموحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المتكون من الألفاظ العربية. وهو لم يزل يتحدى الناس من لدن نزوله إلى يوم الساعة. أضف إلى ذلك أن المؤرخين قديما وحديثا يجمع على أن العرب لهم ملكة لغوية قوية وسليقة راسخة في البيان وبلاغة المنطق وتذوق الكلام والتمييز بين جيده ورديئه. أما وإن كانت هذه الحالة اللغوية للعرب في ذروة البلاغة السامية وقمة الفصاحة العالية و جمال الأساليب الرفيع يوم أنزل القرآن –كما ذكر مسبقا – فإن القرآن وحده قد خصص لنا هذا الخبر فقال تعالى في عدة آيات منها: فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ [12] فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا [13] وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ [14] وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ[15] وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُون [16]

هذه اللآيات الكريمة تدلنا دلالة واضحة أن القرآن ليس فقط منزل باللغة العربية ما يجعل العرب يفهمون كل ما فيه من الألفاظ والتراكيب والمعاني والأساليب وإنما تشير إشارة جلية إلى أن العرب حين نزول القرآن في قمة حالته اللغوية وجودة بيانه المرموقة.

والعرب على ما كان فيهم من أمية امتازوا من بين معاصريهم من الأمم بالنزوع إلى الكلام الطيب. بل سيادة الأمية فيهم سببا في أن أرهفوا كلمات لغتهم وجرسها وأساليب

---

[12]. الأحزاب : 19.

[13]. مريم : 97.

[14]. البقرة: 204.

[15]. الزخرف: 58.

[16]. المنافقون: 4 .

خطابهم وعباراتها وانسجام حروفهم وتراكيبها ومؤاخاة المعاني والألفاظ[17]. حتى إن الواحد منهم كان اذا ذاق الكلام عرف قائله من قبل ان يذكر له. واذا سمع البيت صدره عرف عجزه.

تلك هي من أحوالهم اللغوية. وفيما يلي نستعرض أقوالهم ما يفي في الدلالة التي تؤكد حالة العرب يوم نزول القرآن:

1. يفهمونه فهما جيدا لأنه نزل بلسانهم.
2. يحرصونه حرصا شديدا لمعارضته.
3. ومع ذلك كله يعجزون عن الإتيان بما يماثل القرآن.

لقد كان في العرب – قبل الإسلام – فحول من الخطباء والشعراء وفيهم مشركون كما أن فيهم موحدون على دين إبراهيم عليه السلام كورقة بن نوفل وفيهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكل منهم يعتقد أن اعتقادهم حق ويرغبهم فيه. لأن الدين أيا كان أو المعتقدات أية كانت تدعو الناس بطبيعتها إليها. ولكن لم نسمع من قريش قد اتخذ موقفا معاديا لأحد من هؤلاء أو احتقرته بل كانت لهم مكانتهم اللائقة كأمثالهم من المشركين. فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم تغير موقفهم وواجهوا دعوته بكل ألوان المقاومة لأنهم أحسوا بأن في القرآن الذي يتلوه قوة غلابة وتأثيرا بالغا فيهم وفي أتباعهم. فما أن يستمع الواحد منهم إلى آيات منه حتى تنقاد لها نفسه ويهوي إليها قلبه ولا يمضي يوم دون أن ينضم إلى صفوف المؤمنين مؤمن جديد. وكانوا يلاقون القبائل الواردة إلى مكة في المواسم ليحذروها من الإصغاء إلى ما جاء به محمد بن عبد الله من كلام. قالوا إنه السحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وزوجه وعشيرته[18]. ولقد حكى القرآن الكريم عنهم ذلك في قوله سبحانه:♦ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُون [19]ومع

---

[17]. المعجزة الكبرى للشيخ أبي زهرة ص. 65 في الإعجاز القرآني لعبد الغني محمد سعد بركة ص. 42.

[18]. سيرة ابن هشام ج 1 ص 270 في الإعجاز القرآني لدكتور عبد الغني محمد سعد بركة ص 43.

[19]. فصلت: 26.

ذلك فإن الإحساس بتأثير القرآن الكريم كان يجذب رؤساء هؤلاء المعاندين ليلا وهم مشتقون لاستماع تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم في بيته بالرغم من أنهم نهى الناس عن سماعه وتواصوا بذلك.

يروى أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق كان كل واحد منهم يأتي من ناحية على غير موعد إلى حيث يستمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ويتلو القرآن في بيته. فأخذ كل منهم مجلسا يستمع فيه ولا أحد منهم يعلم مكان الآخر وعندما تفرقوا آخر الليل وجمعهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض: " لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا. ثم انصرفوا. حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل منهم إلى مجلسه لا يدري بمكان صاحبه فباتوا يستمعون للمصطفى حتى طلع الفجر فتفرقوا وجمعهم الطريق فتلاوموا وانصرفوا لأن لا يعودوا لكنهم عادوا في الليلة الثالثة وباتوا يستمعون إلى القرآن[20].

هناك مثل هذه الحادثة الغيرقليلة توحي إلينا على أن للمعاندين والمعارضين للقرآن يحرصون شدة الحرص على التعرف لما في القرآن من المعاني والتعاليم وإن أنكرت نفوسهم وجحدت قلوبهم. لقد حكانا التاريخ عن إسلام عمر بن الخطاب وقد كان أشد قريش عداوة للإسلام وإسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير – وهما كبيرا حي بني الأشهل – تحت يد مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة وإسلام جمع غفير من أهل المدينة حين جاءوا إلى مكة في الموسم ثم عادوا إلى المدينة فأظهروا الدين فيها فلم يبق من بيوت الأنصار بيت إلا وفيه القرآن حتى قيل في رواية: فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن[21]. ما كل هذه إلا لبلاغة أسلوب القرآن الذي يختلف اختلافا بأسلوب كلام العرب وإن كان جاريا على سنن كلامهم حرفا وتركيبا وأسلوبا. وكفى بذلك ما قاله الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن يتلوه محمد: " والله لقد سمعت من محمد كلاما ليس من كلام الإنس ولا من

[20]. سيرة ابن هشام ص 337 – 338 في الإعجاز القرآني،لدكتور عبد الغني محمد سعد بركة، ص 44.

[21]. سيرة ابن هشام ج 2 ص 435 في الإعجاز القرآني ص 46.

كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق[22]. فأي اعتراف أشد وقعا وأدل حجة من هذا الإعتراف عن بلاغة القرآن. هذا هو الدليل على أنهم كانوا يعربون عن إعجابهم ببلاغة القرآن في تصاوير بيانية سامية ما جعلهم معترفين أن القرآن ليس من كلام أي بشر. فاستطعنا أخيرا الإستنباط أن الإعجاز القرآني لا يدركه الا البلاغة. فلولا البلاغة لما يعرف الإعجاز ولولا معرفة الإعجاز لما يتم الإيمان به من جهة ما خصه الله في كتابه.

ب. التفسير ومكانته إزاء القرآن ككتاب هداية.

تهدف رسالة الإسلام إلى سعادة الناس في دنياهم وأخراهم. وقد وضح لهم القرآن سبل الوصول إليها ووضع المناهج لهم الرسول قولا وفعلا. فتوضيح القرآن وبيان الرسول صلى الله عليه وسلم يمثلان الهداية التي لا بد من أن يتمسك بها الإنسان في طريقه متجها إلى السعادة المنشودة في معاشهم ومعادهم.

فالقرآن وإن كان منزلا بلغة العرب وعلى أساليب العرب فلم يكن جميعه على متناول الصحابة جميعا حيث يستطيعون أن يفهموه – إجمالا وتفصيلا – بمجرد أن يسمعوه. بل كانوا يختلفون في مقدار فهمه حسب رقيهم العقلي كما عاناه ويعانيه كل فرد في أمة من الأمم. وقدرات الصحابة في فهم القرآن تتفاوت على قدر ملازمتهم الرسول. من الصحابة من كان يلازم الرسول فيعرف أسباب النزول ما لا يعرفه غيره. ومنهم من كان واسع الإطلاع على الآيات النازلة فيلم إلماما بغريبها ومنهم دون ذلك. فكذلك الشأن بالقرآن. لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضي أن العرب كلهم يفهمونه في مفرداتهم وتراكيبهم. والدليل على ذلك ما هو حاصل في مشاهدتنا. فليس كل كتاب مؤلف بلغة يستطيع أهل اللغة كلهم أن يفهموه فكم من كتب مكتوبة باللغة الإندونيسية مثلا لا يستطيع الإندونيسيون أنفسهم فهمها. لأن فهم الكتاب لا يتطلب استيعاب اللغة وحدها وإنما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب في رقيه وفنونه. وفوق ذلك كله فإن

[22] تفسير الزمخشري سورة المدثر في البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ص 9.

في القرآن آيات كثيرة لا يكفي في تفهمها بمجرد معرفة معاني الألفاظ وأساليبها وإنما في دوام الحاجة إلى المعلومات الأخري المتعلقة بها إلى جانب أن فيه أيضا ألفاظ غامضة المعنى فلا يعلم المراد فيها الا بعد البحث والنظر.هذا هو شأن العرب أمام القرآن. وكفانا دليلا على ذلك مشاهدة التاريخ التالية:

1. سؤال رجل عمر بن الخطاب ما الأب ؟ في قوله تعالى:﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [23] فأجاب عمر :" نهينا عن التكلف والتعمق ".
2. سؤال رجل " أينا لم يظلم ؟ " حين نزول قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ[24]
3. سؤال عائشة رضي الله عنها عن الحساب اليسير في قوله تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [25] ♦فقال الرسول:" ذلك العرض، ومن نوقش الحساب عُذّب ".
4. قصة عدي بن حاتم في الخيط الأبيض والخيط الأسود حيث قام بما فهمه على حسب مقدوره في اللغة فوضع العقال الأبيض والأسود تحت وسادته للتفريق بين الليل والنهار فقال له الرسول: " إن وسادتك لعريضة إنما هو سواد الليل وبياض النهار[26].

هذه الأمثلة وما يشابهها تدل دلالة واضحة على أن في القرآن ألفاظا وتراكيب تحتاج إلى التبيين والتفسير. لقد أشار الله وحده في قرآنه أن في القرآن ما يسمي بالآيات المحكمات الواضحة المعنى وهي التي تتعلق بأصول الدين وأصول الأحكام وخاصة منها الآيات المكية التي تدعو إلى أصول الدين. وهذا النوع من الآيات يستطيع فهمها جمهور الناس وبصفة خاصة العرب الذين لهم السليقة. وإلى جانب ذلك هناك ما يسمى بالآيات

---

[23]. عبس : 31.

[24]. الأنعام : 82.

[25]. الإنشقاق : 8.

[26]. انظر البرهان ج:1. ص. 15 \ مناهل العرفان ج.1 ص. 477\ فجر الإسلام ص. 196.

المتشابهات الغامضة المعنى التي صعب فهمها ولم يصل إلى معرفتها الا الخاصة[27]. ففي ذلك قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَاب[28]

والحق من البديهي أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتفاوتون مقدرة في فهم القرآن ومعرفة معانيه. من ذلكفكانت رسالة التفسير وسيلة من الوسائل للوصول إلى تحقيق القرآن هداية في الحيوية البشريةالمحسوسة ولجعل الحياة تجري على ظل هداية القرآن الملموسة. فقام بذلك الرسول كالمفسر الأول ومارسها كالمعلم الأول على خير وجه. لأن التفسير والتبيين من مهمات الرسول فقال تعالى مبينا تلك المهمات: ✎ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [29] . وقال في موضع آخر : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ✎[30] ✎وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[31]

بما أن التفسير هو التبيين فلا شك أن التبيين المذكور في ثلاث آيات سالفة لا يراد بها إلا التفسير. فالرسول إذن هو المعلم الأول لتعاليم الإسلام والمفسر الأول لكتاب الله. وهو أول من علم الكتاب وعلم الأمة ما لم يكونوا يعلمون كما أوضح ذلك القرآن وحده

---

[27]. أمين أحمد، فجر الإسلام. ص. 197.

[28]. آل عمران: 7 .

[29]. ابراهيم: 4.

[30]. النحل : 44 .

[31] . النحل : 64 .

فقال: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ[32].

سيرا على هذه المهمات الواجبة وهذه الوظيفة الرسولية شجع الرسول على السؤال في أمر الدين وقال: "شفاء العِي السؤال". فاذا سئل أجاب بما فهمه من القرآن. وكل ما حكم به الرسول يتضمن معنى أنه من القرآن. وربما هذا الذي أراده في حديثه:" ألآ إني أوتيت القرآن ومثله معه " يعني السنة. وأحيانا يأتيه السؤال فيجيبه القرآن كما سجل ذلك في آياته الكثيرة. وهو إن الآيت القرآنية المبدوئة بكلمة " يسئلونك " – المذكورة ثماني مرات في القرآن[33]– لتوحي إلينا أنه يتجاوب مع الإنسان ويعيش وحوائج الإنسان. فلا شك اذن إن هذا التجاوب وهذه المعايشة في حقيقته هو الهداية. يهدي به الإنسان فيما جال بخاطرهم من الأمور فعلموا مالم يكونوا يعلمون من قبل.

فالقرآن باعتباره منهج الحياة ليس فقط يتحدث عن العقيدة والشريعة والأخلاق والحلال والحرام والأمم السالفة وإنما يتحدث أيضا عن نواحي الحياة الإنسانية الأخرى. وكل ما يتحدث عنه القرآن من أمور سياسية أواقتصادية أواجتماعية أو عدالة وما إلى ذلك، إنما في حقيقته يهدي الناس . وكلما يتحدث القرآن عن أي أمر من الأمور سواء أكانت دنياوية أم أخروية إنما في حقيقته يهدي الناس كيلا ينحرفوا عن القرآن باعتباره منهج الحياة الإسلامية. ولكن بما أن المقام غير متسع فليس بجدير إعراب الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأمور الحيوية كلها وتهدي الناس باعتباره كتاب هدية. ولعل بعض الآيات الآتية تمثل المراد المذكور أعلاه.

وعيا على أن الحياة الإنسانية لا تخلو من العقبات والعراقيل التي تؤدي إلى الصراع والنزاع فيما بينهم بل يؤدي إلى القتال والحروب والفرقة والرسوب فتأتي الآية القرآنية تهدي الناس وتعطي سبيل الخروج من هذه المشكلة وتحثهم على القيام بالشورى في تحليل

---

[32]. البقرة: 151.

[33]. البقرة: 189، 215،217،219. المائدة: 4. الأعراف: 187. الأنفال: 1. النازعات: 45.

مشاكلهم السياسية على جميع مستواها فقال: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون[34]وقال في موضع آخر: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ[35]

بل الشوري المذكورة في القرآن لا تتحدد في الأمور السياسية فحسب وإنما يأتي بالأمر بالتشاور أو الشورى فيما يتعلق بالأمور الأسرية فقال تعالى: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [36]

ليس هناك أي غموض في أن القرآن كتاب هداية كما أنه ليس هناك أي شك في أن القرآن كتاب إعجاز.

ج. أهمية البلاغة العربية في تفسير القرآن.

البلاغة علم من العلوم الإسلامية استنها المسلمون أول ما استنوه لخدمة دينهم والذود عن قرآنهم لأن ثمرة البلاغة كما رأوها في أول عهدهم بها هي فهم المعجزة الكبرى لنبيهم وهي القرآن الكريم وإدراك إعجازه. وإعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة. وهو أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختض بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الإعجاز التي تقصر الأفهام عن إدراكه.[37]

---

[34]. الشورى : 38.

[35] آل عمران: 159.

[36] البقرة : 233.

[37] د \ بدوى طبانه ، أبو الهلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ، ص.7.، ط.2.، مكتبة الإنجلو المصرية ، س. 2.

فالأساس الذي بنيت عليه البلاغة أولا دراسة أساليب القرآن في التعبير ومقابلتها بأساليب البلغاء ثم استخلاص عناصر الجودة في الأولى ومواضع التقصير في الثانية. ثم موازنة الآي من التنزيل بالجيد من كلام العرب ليبين فضل الكتاب على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان واعترف لهم البشر فيه بالإجادة والإتقان. [38]

وكان من الطبيعي أن تتطور تلك النظرات إلى الدراسات التي لا تقف عند الأمور الإعجازية فحسب وإنما تعدو وتتجاوز فيما بعد إلى ما احتواه القرآن من التعاليم والشرائع والأحكام. وما ذلك إلا لوعي على أن القرآن ليس فقط كتاب إعجاز ولكن في الوقت نفسه كتاب هداية. فالقرآن باعتباره كتاب هداية يقتضي أن يكون ما فيه من تعاليم مفهوما فهما صحيحا قبل أن يكون معمولابه. والطريق الوحيد للوصول إلى الفهم الصحيح هو التفسير أو التبيين ولا سبيل إليه الا التفسير. والتفسير في عهد النبي لا يعتبر أمرا مشكلا في ذاته لأن الصحابة لجأوا إليه كلما أشكل عليهم فهم آية معينة من الآيات وسألوه مباشرة. فيأتي الجواب إما من القرآن وحده وإما من تلقاء النبي صلى الله عليه وسلم لأنه هو المبين والمفسر للقرآن. وقد يكون تفسير النبي للآية المعينة بدون سؤال سابق. وذلك لما يراه من حاجة إلى التبيين. على سبيل المثال ما روي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر:" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" ألآ وإن القوة الرمي[39]. وما قام النبي بتفسير القرآن إلا على حسب السؤال والحاجة وعلى حسب ما غمض من ألفاظ القرآن. هو المصدر الثاني للتفسير بعد القرآن. وفيما أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما عن عدي بن حبان قال:قال رسول الله: إن المغضوب عليهم هم اليهود وإن الضآلين هم النصارى[40].

---

[38](د \ بدوى طبانه ، أبو الهلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ، ص.7.، ط.2.، مكتبة الإنجلو المصرية ، س. 2.)

[39]. أخرجه مسلم وغيره، في مناع قطان، مباحث في علوم القرآن ص. 336.

[40]. التفسير والمفسرون، ج 1. ص. 48.

فعلى هذا التخمين إن القرآن لم يكن فسره النبي بأسره وإنما فسره أقله منه بدليل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معاني القرآن لما كان خصصه بالدعاء لابن عباس بقوله: " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل[41].

تزايد هذا الغموض تدريجيا كلما بعد الناس عن عصره صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة. فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث[42]. سيرا على ممر العصور واتساع الفتوحات الإسلامية وتقدم العلوم فقد اشتدت حاجة مفسري القرآن الكريم إلى طائفة من العلوم كان على رأسها ما عرف في القرن الخامس وما بعده بعلوم البيان والمعاني[43]بصفة خاصة والعلوم العربية بصفة عامة لأن الجهل بهذه العلوم قد يفضي إلى الخطأ في التفسير. هذه الأحوال والظروف ما تؤدي إلى وضع الشروط اللازمة للمفسر. وقد عدّ السيوطي علوم البلاغة من أعظم أركان المفسر لكتاب الله[44]. أضف إلى ذلك لنتأمل ما قاله الذهبي إنه مهما يكن القرآن عربية ووجوه المعاني في القرآن توافق وجوه المعاني عند العرب ففي القرآن ألفاظ وتراكيب وكلمات واساليب ومجازات وحقائق لا يفهم معناها إلا بعد تأمل دقيق يحمي المفسر من الوقوع في الأخطاء التفسيرية. فاشترط العلماء في من أراد أن يكون مفسرا عددا من الشروط اللازمة. منها عليه أن يستوعب علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع[45].

نعم إن الحديث عن البلاغة لا يعدو أن يكون إلا عن المعاني والبيان والبديع. المعاني هي الدراسة التي تهتم بأمور الكلام وتطابقه مع اقتضاء الحال. متى يكون الكلام

---

[41]. التفسير والمفسرون، ج 1. ص. 53.

[42]. مناع قطان، مباحث في علوم القرآن ،ص. 338

[43]. محمد عبد الغني حسن، القرآن بين الحقيقة والمجاز ، مؤسسة المطبوعات، ص.100.

[44].التفسير والمفسرون، ج 1. ص.356.

[45]. حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج. 1 ص. 256.

غير مؤكد؟ ومتى يكون مؤكدا بواحد؟ ومتى يكون مؤكدا بتوكيدين فأكثر؟ وما إلى ذلك من البحوث في علم المعاني. أما البيان فهو الدراسة التي تهتم بأمور الكلام من ناحية وضوح معانيه وخفائها من تشبيه أو مجاز أوكناية أو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة إما بالتشبيه وإما بالمجاز وإما بالكناية. أما بالنسبة إلى البديع فإنه دراسة تهتم بأمور المحسنات اللفظية والمعنوية من شجع وجناس وطباق ومقابلة وما إلى ذلك.

فآيات القرآن مفعمة بهذه الأنواع الثلاثة من البلاغة. استمع إلى قوله تعالى: •لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ[46] واذا كنا لا نعرف مجازا ولا استعارة ولا غيرهما من المصطلحات التي وضعها علماء البيان فإننا واجدون أنفسنا نسأل سؤالا يخطر على البال: هل للنبي عليه السلام جناح حتى يأمره ربه بخفضه للمؤمنين؟ قال ابن عباس[47]{ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } لين جانبك للمؤمنين يقول كن رحيماً عليهم . والكلمة المشابهة تذكرها الآيتان التاليتان:۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [48]۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [49].

هذه التعبيرات ومئات ومئات مثلها في القرآن تكون من الإعجاز البياني وهي وما يماثلها ليست مستعملة على سبيل الحقيقة. ولكنها مستعملة على سبيل المجاز.

استمع إلى قوله تعالى: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ[50]. الإستفهام أصلا طلب علم لم يكن معلوما من قبل. فهل الله في هذه الآية القرآنية— وما يماثلها – يسأل لكونه غير عالم عما يسأله ؟ كلا.. لن يتصور في ظن أحد منا أن الله

---

[46]. الحجر : 88.

[47] . مكتبة شاملة.

[48]. الإسراء : 24 .

[49]. السعراء: 215.

[50]. الحجرات: 12 .

تعالى غير عالم فسأل. فما خيالنا اذا كان المفسر لا يلم إلماما بعلم البلاغة إزاء مثل هذه الآية.

إن المتأمل الدقيق لواجد أن الآيات القرآنية على منظور علم المعاني تتقسم فقط على قسمين: إما أن تكون خبرية وإما أن تكون إنشائية. الكلام الخبري في أول الأمر ضد الكلام الإنشائي. ولكن اذا تتبعنا الكتب البلاغية بإمعان ومع تذوق لطيف أحسسنا ووجدنا أن هناك أخبار تتضمن معنى الإنشاء والإنشاء يتضمن معنى الخبر. والقضية ليست بعسير.

اذا قلت مثلا :(غفر الله لك) فظاهر الكلام خبري لأنه ليس له من أمارات الإنشاء المعروفة فليس من أساليب الإنشاء. ولكن المعني هنا للدعاء وهو (رب اغفر له) فتبين من ذلك أنه خبر وأنه بمعنى الإنشاء. و (غفر الله لك) أبلغ من (رب اغفر له). لأن صيغة الماضي يحصل بها التفاؤل والمسرة لتحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع بالفعل. ومثله (وفقك الله للتقوى) و (رزقني الله لقائك) وهذه التعبيرات كلها الأخبار شكلا والإنشاء معنى لأن الدعاء من نوع الإنشاء. أما الأمثلة لهذا النوع من الآيات القرآنية فقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [51] خبر في معنى الأمر. وتدل عليه قراءة ابن مسعود: (آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا) ومنه قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ[52] قال الزمخشري: (• لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ) في معنى إنشاء: لا تعبدوا[53].

[51]. الصف: 10- 11.

[52] . البقرة: 83.

[53]. الكشاف 4\99 الصف 11 فيفن البلاغة للدكتور عبد القادر حسين ص. 268.

وبالإضاف إلى ذلك فإننا ألفينا في الكتب البلاغية أن الإنشاء قد يقع موقع لخبر. دونك الأمثلة التالية.

1. قال تعالى: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ[54]. هذه الآية أمر في اللفظ وليس بأمر في المعنى. لأن الله أخبرهم أنه لن يتقبل منهم. كأنك قلت: " إن أنفقت طوعا أوكرها فليس بمقبول منك. فالأمر في الكلام بمنزلة إن في الجزاء.
2. قال تعالى: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [55]. إن هذا الكلام ليس بأمر وإنما على تأويل الجزاء أي إن تستغفر لهم أو لا تستغفر لهم فإن الله لن يغفر لهم[56].

فعندما قال تعالى:❹ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوه[57] ، تبين لنا أن الله تعالى ليس في سؤالنا وإنما في إخبارنا إن عمل الغيبة لأمر شنيع أشنع من أكل لحم الأخ الميت. ما أهم البلاغة في التفسير وأهمم بها. كيف يكون التفسير بدون البلاغة في مثل الآية:

أ. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا [58]
ب.وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ[59]

---

[54]. التوبة : 53.
[55]. التوبة : 80.
[56]. معاني القرآن 2\ 441. في فن البلاغة ص. 270.
[57]. الحجرات: 12.
[58]. الإسراء : 29
[59]. اللهب : 4

ج. وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [60]

د. ۞ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [61]

د. خلاصة البحث.

يمكن حصر أهم نتائج موضوع البحث فيما يلي:

1. القرآن كلام. وهذا الكلام ليس فقط كتاب هداية وإنما في نفس الوقت كتاب إعجاز. وهذا التلازم يقتضي أن يكون جميع الآيات في القرآن كلها هداية وكلها معجزة.

2. فمثل الإعجاز والهداية في القرآن كمثل العملة الواحدة ذات وجهين. فيستحيل التفريق بينهما.

3. الإعجاز القرآني لا يدرك ولن يدرك إلا عن طريق البلاغة لأن البلاغة وليدته.

4. الهداية لا تدرك ولن تدرك إلا عن طريق التفسير.

5. فالتفسير الصحيح هو التفسير القادر على تجلية جانبي القرآن في آن واحد.

اللهم هذا ما استطعت وما استطعت الا ما جعلتني مستطيعا فتقبل مني.

---

[60]. الزمر 67.

[61]. آل عمران : 47.

قائمة المراجع الأساسية

1. أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمنبن محمد الجرجاني الشيخ الإمام ، *أسرار البلاغة*، دار المدني بجدة، بدون سنة.
2. أحمد أمين ، *ضحى الإسلام*، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط.333، بدون سنة.
3. أحمد أمين، *فجر الإسلام*، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط.11، 1975.
4. أحمد محمد الحوفي الدكتور ، *الزمخشري*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون سنة.
5. أحمد مصطفى المراغي، *تاريخ العلوم البلاغة والتعريف برجالها*، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط. 1.،س. 1369 هـ.
6. أحمد مصطفى المراغي، *علوم البلاغة*، المكتبة المحمودية التجارية، ط. 5.
7. أحمد الهاشميالسيد ، جوهر *اللاغة*، دار الفكر.ط. 12.
8. أمين الخولي، *مناهج التجديد في النحو البلاغة والتفسير والأدب*، دار المعرفة.
9. إحسان صادق سعيد الدكتور ، *علوم البلاغة عند العرب والفرس*، المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق، ط.1.، س.1421 هـ \2000 م.
10. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، *البرهان في علوم القرآن*، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، بدون سنة.
11. بدوي طبانه الدكتور ، *قدامة بن جعفر والنقد الأدبي*، مكتبة الانجلو المصرية.
12. بدوي طبانه الدكتور، *أبو الهلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية*، مكتبة الانجلو المصرية.
13. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، *الإتقان في علوم القرآن*، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، بدون سنة.
14. حسن محمود الشافعي، *المدخل إلى دراسة علم الكلام*، القاهرة، مكتبة وهبة، 111411 \ 1991.

15. حسين مؤنس، أطلس ، *تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي*، القاهرة، 1407 \ 1987 .
16. حسين الذهبيالدكتور، *التفسير والمفسرون*، مكتبة وهبة، ط.3، س.1405 \ 1985 .
17. داود سلوم الدكتور ، *تاريخ النقد العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الثالث*، مطبعة أيمان، بغداد، س. 1969.
18. الداسوقي، *حاشية على شرح المختصر للعلامة سعد الدين التفتازاني على متن التلخيص*، دار الخلافة العلية، ج. 1– 2.، س. 1307 هـ.
19. الشحات السيد زغلول، *الإتجاهات الفكرية في التفسير*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندارية، 1397 \ 1977.
20. شوقي ضيف الدكتور، *البلاغة تطور وتاريخ*، دار المعارف، ط.6.
21. شوقي ضيف الدكتور، *تاريخ الأدب العربي*، دار المعارف، ط. 7.
22. صبحي صالح، *مباحث في علوم القرآن*، دار العلم للملايين، بيروتتت ، ط. 10، 1977 .
23. عبد العزيز بن محمد الفيصل الدكتور، *الأدب العربي وتاريخه*، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي جامعة الإمام بن سعود الإسلامية، طز 1.، س. 1405 هـ.
24. عبد الغني محمد سعد بركة الدكتور، *أسلوب الدعوة القرآنية بلاغةً ومنهاجا*، مكتبة وهبة، 14 شارع المهورية – عابدين، القاهرة.
25. عبد الغني محمد سعد بركة الدكتور، *الإعجاز القرآني، وجوهه وأسراره*، مكتبة وهبة 14. شارع الجمهورية – عابدين، القاهرة.
26. عبد الفتاح لاشين الدكتور ، *المعاني في ضوء أساليب القرآن*، دار المعارف، طز 2.، س. 1978 م.

27. عبد القدوس أبو الصالح وأحمد توفيق كليب، *كتاب البلاغة، المعاني والبديع*، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، س. 1399 هـ - 1979 م.
28. عبد القادر حسين الدكتور، *فن البلاغة*، مطبعة الأمانة، مصر، بدون سنة.
29. علي عشرى زايد، الدكتور ، *البلاغة العربية تاريخها .. مصادرها .. مناهجها*، مكتبة الشباب 26، شارع إسماعيل مري بالحيرة ت 21825. - عابدين.
30. محمد بركات حمدي أبو علي، *مناهج وآراء في لغة القرآن*، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1984.
31. محمد بكر إسماعيل، *دراسات في علوم القرآن*، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع، ط. 1، 1411 \ 1991.
32. محمد تقي المدرسي، *العرفان الإسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي*، دار البيان العربي، ط. 3، 1412 \ 1992.
33. محمد خلف الله أحمد ودكتور محمد زغلول سلام، *ثلاث رسائل في إعجاز القرآن*، دار المعارف بمصر، ط. 3.
34. محمد عبد العظيم الزرقاني الشيخ، *مناهل العرفان في علوم القرآن*، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، بدون سنة.
35. محمود بن عمر محمد بن عمر الخوارزمي الزركشي، *الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. بدون سنة.
36. مصطفى الصاوي الجويني الدكتور، *مناهج في التفسير*، منشأ المعارف بالإسكندارية، بدون سنة.
37. مصطفى الصاوي الجويني الدكتور، *منهج الزمخشري في تفسير القرآن*، دار المعارف، مصر، بدون سنة.

38. مصطفى مسلم، *مباحث في التفسير الموضوعي*، دار القلم، دمشق، ط. 1، س. 1310 \ 1989.

39. مناع القطان، *مباحث في علوم القرآن*، مكتبة المعارف الرياض، ط. 2، س. 1408 \ 1988.